

التفاعلُ الحضاريُّ في تكوينِ اللغةِ وتطورِها

الأستاذ محمد المبارك

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

وكانَت السنة اي اقوال النبي صل الله عليه وسلم وافعاله التي رواها الصحابة المصدر الثاني للإسلام عربية اللغة كذلك وهكذا ترافق الإسلام واللغة العربية منذ ذلك العين وساوا معه بغير التسرون نكانت اللغة العربية معبرة عن الإسلام وحضارته وكان الإسلام منخذاً من العربية وسبلاً للتعمير من عقيداته وأحكامه واستمر ذلك حتى المعاصر .

ثانياً : الارتباط الجغرافي :

ولئن كان الإسلام قد من السواد الأعظم من العرب في وقت مبكر فإنه سرعان ما تجاوز الدائرة العربية إلى ما هو أوسع منها فدخل بلاداً وهم شعوباً ليست العربية لفتحها لنشر العربية في قسم من هذه البلاد حتى أصبحت لفتحها الوحيدة وذلك كبلاد الشام والعراق وشمال أفريقيا وانضافت شعوب هذه البلاد إلى الدائرة العربية وإن كانت بعضها سابقة صلة بالعروبة ثم تجاوز الإسلام هذه الدائرة إلى بلاد أعمجية اللغة لغات شعوبها بالاسلام نكانت العربية بالنسبة إليها لغة الدين الجديد المشتمل على عبادات قوام شعائرها اللغة العربية وعلى معاملات

ان بين الإسلام واللغة العربية صلة وثيقة وتلزماً طويلاً الأمد عميق الغور بغير الرمان وعلى مر المصور وفي آفاق الأرض التي وصل إليها وبليها حدودها وليس التساؤل من وجود هذه الصلة فتلك بدائية مستقرة في الأذهان ولكن من طبيعة هذه الصلة وأسبابها وجوانبها وتجعلية لهذا الموضوع نعرضه من جوانب مختلفة ونحاول أن نبرز مواطن اللقاء وأنواع الارتباط بين الإسلام واللغة العربية .

أولاً : الارتباط التاريخي :

اللغة العربية كما هو معلوم لغة معرقة في القدم استقلت عن أخواتها السامييات وتميزت منها بخصائص واختلافات صيفاً واشكالاً انفردت بها وظهرت الإسلام نكانت هي اللغة التي حملت رسالته ومبررت من مبادئه وتعاليمه فنزلت آيات القرآن الكريم بها حتى أتى الله سبحانه فكان القرآن الكريم الكتاب العربي المبين كما وصفه نزله سبحانه في عدد من آياته :

- « انزلناه قرآنًا عربياً » 12 - 2 و 20 - 113
« اوحينا إليك قرآنًا عربياً 42 - 7 ، « انا جعلناه قرآنًا عربياً » 43 - 3 ، « بلسانٍ عربى مبين » 26 - 195 و آيات أخرى بهذا المعنى .

ليس لها في العربية حرف يصورها اصطلاحات خاصة كالباء المنقطة بثلاث نقط لرسم حرف الـ (P) في الفارسية والتركية وغيرها من العروض التي ليست في العربية .

وهكذا كان سبباً في انتشار الكتابة العربية او الرسم العربي في دائرة واسعة جداً تشمل شعوبها كثيرة مختلفة اللغات فكان بذلك حداً ادنى من التفاهم عن طريق الكتابة والعرف وهذه ظاهرة اجتماعية لغوية ذات آثار عديدة في تفاهم الشعوب والتقاليد وتعاونها تشبه ما عند الامم الاوربية التي تستعمل العروض اللاتينية وتشترك في عدد من المفردات .

وهكذا كان الاسلام كان سبباً في انتشار العربية لدى نخبة عالية من ابناء الشعوب التي تدين بالاسلام والمنتشرة في اقطار آسيا وافريقيا وفي انتشار عدد كبير من الالفاظ العربية في لغاتها وفي استعمال الحرف العربي وذلك كله يسهل تعليم اللغة العربية مع وجود الدواعن الدينية والتثقافية لتعلمها وهي تغير اللغة الثانية في كثير من هذه البلاد . بل ان نسبة معدداً كبيرة من المدارس والمعاهد والجامعات تعلم باللغة العربية او تحملها في محل الاول بعد لغة البلاد في كثير من البلاد الاسلامية كایران وباكستان وأندونيسيا .

الارتباط المتركي والهندي :

ان الاسلام اذ ادخل من العربية لغته منذ ظهوره استعمل مفرداتها للدلالة على مفاهيمه الجديدة فاكتسبت كثير من الالفاظ معانٍ جديدة حملها الاسلام وكثيراً من ما نسى المعنى اللغوی الاصلي ويقى المعنى الجديد كلغة الجihad والانفال والزكاة والجنة .

لغة خالدة لمحاهيم خالدة :

ولمة نكتة هامة لم يلتفت اليها الباحثون الالتفات الواجب ولم يولوها ما تستحق من المناية بل لعلهم لم ينتبهوا اليها وهالئذ امرها بين يدي الاخصائين وقراء العربية هامة .

ان الاسلام جاء بمقاييس ومفاهيم ثابتة لا تتغير ولا ينبغي ان تغير ولكن انى لنا ذلك والله تتطور

واحكام ائمها تؤخذ من مصادرها العربية في القرآن والسنة واقوال السلف وهكذا ظهرت احداث جديدة هامة تخصها فيما يلى :

1 - اصبحت العربية لغة الثقافة بالنسبة الى الخاصة لنشأت طبقة من علماء الدين من الامامين تعلموا العربية وحدقوها ثم اتبع الامر فكانات لغة الثقافة بوجه عام ولم تقتصر على الثقافة الدينية اذ اصبحت لغة الحضارة الاسلامية في جميع ميادينها وتكون على مر المصور ذلك الاتصال الفخم في ميادين الفقه والعلوم الاسلامية واللغة والادب والفلسفة والتصوف والتاريخ والطب والعلوم اشتراك في تكوينه ابناء البلاد التي دانت بالاسلام والتي فدت جزءاً من الدولة الاسلامية ولو لم يكونوا عرباً في انسابهم ولغاتهم .

2 - اثر العربية في لغات الشعوب الاسلامية :

وفي خلال هذا التمازج التفوي والتتفاعل الحضاري دخلت الالفاظ العربية كبيرة في لغات تلك الامم التي دخلت في الاسلام سواء اكان من الالفاظ المبادات ام كانت من الالفاظ التي ادخلت الاسلام معاهاها الجديدة كصفات الله تعالى والمعاملات الفقهية والاحكام القضائية والتنظيمات الادارية والسياسية والمفاهيم الاخلاقية والدينية وشاعت هذه الالفاظ ودخلت في لغات تلك الاقوام .

3 - اصبحت اللغة العربية مصدراً تهل منه تلك اللغات ما تحتاج اليه من الالفاظ اما لفقدان هذه الالفاظ فيها او لقصورها عن توليدها او رغبة في جمال اللفظ العربي المعبّر عنها .

وهكذا دخل من هذه الطريقين كثير من الالفاظ العربية في اللغات الفارسية والتركية والكردية والسوائلية وغيرها بنسبة كبيرة .

4 - ونضيف الى ذلك امراً آخر ذا شأن كبير وهو شيوع الحرف العربي باعتباره اداة لكتابية لغات الشعوب الاسلامية فاصبحت اللغة الفارسية والتركية والاوరدية والجاوية (لغة اندونيسيا والملايو) وغيرها تكتب بالعرف العربية وقد وضعت للاصوات التي

الاقل في اللغة العربية التي يستعملها الادباء والكتاب وربما دخلت لغات الشعوب الاسلامية باعتبارها مصطلحات اسلامية باللغة العربية كهذه الالفاظ :

(المقد الفاسد ، المساقاة ، الدات ، والصفات ، والفناء ووحدة الشهود والمرض والجهر والدور والتسلل وامثالها) .

القرآن الكريم :

وند كان القرآن العظيم عاملا قويا في كل ما تقدم لأن المسلمين اجمعوا على ان القرآن ينفعه العرب النزل الحفوظ حتى يومنا هذا هو وحده القرآن وان ترجمته الى اي لغة اخرى لا تسمى قرءانا وليس لها احكامه فلا تكون مصدرا للاستنباط ولا يتعين بها بل لا يجوز ترجمته ولكن ترجمة معانيه بحيث تعتبر الترجمة تفسيرا له باللغة الاجنبية وبناء على هذا الاساس حرض المسلمين على تعلم القرآن بنفعه العربي حفظا او حفظا وفهمه ويقدر الطاقة واكثروا من تلاوته تبعدا بعروبه العربية التي اضطروا الى تعلمها فكان ذلك عاملا هاما في نقوية هذه الصلة بين الاسلام واللغة العربية ولني انتاج النتائج الكثيرة التي بيانها فيما سبق من كلامنا .

ومن اجل هذا ايضا كان من مداخل الشعوبية وطرائقهم ابعد الناس عن الفصحى لاحلال العامية مكانها والداعية لترك العروض العربية والكتابة العربية والسعى لغاء النحو العربي وأساد ملكة اللغة وذلك كله يؤدي طبعا الى ابعد الناس من الفصحى والى تفرقهم امما مختلفة والى تمديس هذا الجسر العظيم الذي يصل بينهم ومهم الشعوب التي دانت بالاسلام وقراءات القرآن وتعلمه وتعلمت العرف العرب بل انخدعه اداة لفتحها .

وبهذه الدراسة يبدو لنا الطريقان : طريق التشتت والتطفل على الفير وطريق الوحدة وثبات الدات والتحرر وذلك هو طريق العرف العربي واللغة الفصحى والقرآن العظيم النزل بلسان هربي مبين .

ودلالة الالفاظ او معانيها في تبدل مستمر في جميع اللغات ؟ وهنا نجد في اللغة العربية وحدها دون غيرها الحل لهذه المشكلة . ذلك ان من خصائص اللغة العربية ثبات العروض الاصلية الثلاثة من كل مادة مهما يطرأ على الكلمة من تبدل في اشتقاها وصيغتها كمعروض ع ل م فان جميع الالفاظ التي اشتقت او يمكن ان تشتق من هذه المادة كالعلم والعلوم والعلوم والاستسلام والمعلومات والمعالم والتعليم والاعلام وغيرها من الالفاظ المشتقة من هذا الاصول تشمل على جميع العروض الثلاثة ويتقابل ثبات العروض الثلاثة ثبات المعنى الاصلى والمعنى المفهوم المشترك بين الالفاظ وهكذا تبدو خاصة بشئون الاصول في صورتها اللغوية ودلائلها المعنوية وهذه الخاصية هي التي يتطلبها الاسلام لامكان تثبيت المفاهيم التي يريد تثبيتها في مبادئه واحكامه مع بقائها واستمرارها في اللغة الشائعة المستعملة عند ابنائها دون ان تحدث فجوة واسعة بين الاصول الفروي المستعمل وما انتهت اليه في صورته ومعناه وهكذا يبقى ابناء العربية على صلة وثيقة وفهم صحيح للنص القديم مهما يطل العهد به . واما اللغات الاخرى فان الالفاظ فيها يمتنعها التبدل والتحول في صورتها حتى تغير حروفها واصواتها فلا تكاد تعرف اصلها ولن دلائلها المعنوية كذلك وبهذه الصورة يصبح بين الالفاظ النص القديم وما انتهت اليه هذه الالفاظ في تطورها بون كبير يؤدي اما الى جهل المعنى القديم او الى الواقع في خطأ جسيم يحمل اللفظ القديم على لفظ الحديث او المعنى الجديد .

فالالفاظ الحق والمدعى والقضاء والحكم واليمين والبينة والشاهد والرهن والاجل والعقد والشرط والخصم وغيرها كذلك من الالفاظ المقاديد والعبادات ثابتة المعنى ولا تزال مستعملة ومفهومة من الناس الى يومنا هذا .

مصطلحات جديدة :

وند ظهرت بعد الاسلام مصطلحات لفوية في ميادين الفقه والكلام والتصوف والفلسفة والمنطق والسياسة والادارة واصبحت جزءا من الثقافة الاسلامية وثبت الكثير منها في المعاجم اللغوية او على